السفير

عنوان:	شفيق عبود مهندس الحس البصري
المصدر:	السفير (998 كلمة)
تاريخ ميلادي:	10/05/2013
الصفحة:	10
كاتب:	بزون احمد

الشرح:

نتذكر شفيق عبود فناناً تشكيلياً رائداً على المستويين اللبناني والعربي، بالإضافة إلى حضوره الباريسي الذي شهد له نقاد فرنسيون كثر. وهو الفنان الذي بدا مطواعاً منذ البداية للحداثة والجديد. فهو استطاع أن ينتقل من الأكاديمية الصارمة التي تلقاها في الأكاديمية اللبنانية للفنون منذ العام 1945 إلى اعتباره واحداً من كبار رواد الحداثة في الفن التشكيلي العربي.
نتذكر اليوم حساسيته العالية في تأليف مساحاته اللونية، تلك التي تنم عن هندسة دقيقة، رغم ما فيها من تبسيط. وربما نستطيع أن نرجع هندسة الألوان لديه إلى بداياته الجامعية، فهو انتسب إلى الهندسة قبل أن ينجذب إلى الرسم ويختص به. كما تنم مساحاته عن شفافية عالية رغم طبقاتها اللونية واشتغاله على الأبعاد الداخلية فيها.
الفنان الذي بدأ هواية الرسم مع تردده صيفاً إلى محترف قيصر الجميل، ثم تعلم تقنياته المركزة على يد الإيطالي فرناندو مانيتي، مع الرعيل الأول في الأكاديمية اللبنانية، الذين نذكر منهم نقولا النمار وفريد عواد ومنير عيدو، انتقل إلى باريس، وانغمس هناك في التيارات الحديثة، بشكل مكثف منذ العام 1951. قبل ذلك، وفي بدايات تجربته في أعمال المنظر الطبيعي أو التشخيص، كان عبود على علاقة، من بُعد، بما يجري في الخارج من اتجاه نحو التجريدية وما تلاها من مدارس، وهو إذ حافظ على وجود الأشكال الطبيعية والبشرية بوضوح، كان يتجه، مثلما يظهر في أوائل لوحاته، نحو التخفيف من الاهتمام بالتفاصيل أو الواقعية التمثيلية، لمصلحة الاهتمام بالمساحة اللونية أو الاهتمام بتظهير انطباعية كثيراً ما انجذب إليها في ما بعد، وتعبيرية عايشها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

اللوحة حدث

وفي المعرض الاستعادي الذي أقيم له في بيروت العام الماضي، أبرزت بعض أعمال المرحلة الأولى، اللبنانية، «انحرافه»، إلى حد ما، نحو التجريد اللوني، وقد تدرج في ذلك، في سنين لاحقة، إلى أن ألغى الحضور المباشر للطبيعة والإنسان معاً، من دون أن يغيبا من مخيلته وهو ينفذ لوحته، أو حتى من عمق لوحته. وقد بقيت شبحية الطبيعة حاضرة حتى نفسه الأخير، أكثر من التشخيص بالطبع.

وإذا قدمت محترفات «البوزار» لعبود الكثير من المعطيات التي أسست شخصيته الفنية، فإن تردده الدائم على لبنان كان يجعله مسكوناً بضوئه ومناظره الطبيعية، بل هو منذ بداياته الباريسية في محترف «هوز» للوجوه فضل أن يهرب إلى الطبيعة، ويرسم الوجوه داخلها، قبل أن يلجأ أخيراً إلى محترفه ويصور ما يعلق بذاكرته، أو يصوّر من دون أن يقيده المشهد، مُدخلاً نفسه وحسه وضرورات التجريد الداخلية إلى الطبيعة، وربما مستعيداً حكايات جدته التي بقيت في نفسه، فحولت اللوحة إلى «حكاية»، كما يقول، أو حدث.

لم يقتصر تصوير عبود على المشهد المنير المشمس الشرقي، فهو كان يتردد دائماً على حديقة مونسوري Montsouris، الواسعة القريبة من منزله الباريسي، في الدائرة الرابعة عشرة. يصور منها لقطات، ثم يشتغل في محترفه على دمج الواقع المرئي بالحلم، أو يدخل التجريدات الحرة التي بدأها في منتصف الخمسينيات، حين كان التجريد في أوج انتشاره في عاصمة الفنون، باريس، والعالم الغربي. ولا ننسى أنه كان غنائياً إلى أبعد الحدود، يُدخل ألوان الطبيعة إلى مزاجه ولوحته معاً، متأثراً بأعمال الطبيعة لدى بيار بونار، أحد جماعة «الأنبياء»، لا سيما بخطوطه المبسطة والاهتمام المركّز باللون. وقد تناوبت على لوحته الألوان الخريفية الباريسية والألوان الصيفية الشرقية الحارة، ولعل فسحات لوحته المرتاحة تنسخ الموسيقى التي كان يسمعها مع أغاني أم كلثوم وفيروز.

لم تقتصر ألوان اللوحة على الطبيعة، فهو كان يعكس حالاته النفسية ألواناً، بل إن الحرب الأهلية في بلاده كانت تظهر بين حين وآخر، ما دام ابتعد بلوحته عن سجنها بالواقع. وكانت للحرب الأهلية في لبنان وللاعتداءات الإسرائيلية عليه محطات في عدد من أعماله. حتى أنه كان يُخضع لوحة المنظر، أحياناً، لحالته النفسية، فيكون المشهد ملوناً بحزنه أو فرحه أو مزاجه الطاغي، من دون أي اكتراث لواقع المشهد المنقول. كان يعمل كل شيء، حتى في حياته الشخصية بعيداً عن القيود، فهو يمتلك شخصية متمردة ورافضة، ومتناقضة أحياناً، حتى أنه لم يقيد نفسه باللوحة فخرج عنها بأعمال الفخار والسيراميك والسجاد والتركيب والحفر. وهو، كما سلف الذكر، لم يلتزم بداياته الكلاسيكية، إنما خرج منها، في باريس، إلى إعجابه الشديد بالانطباعية، كونها أتت من داخل الفن، وانطلقت منه إلى الحياة اليومية بكل تشعباتها، من الطبيعة حتى المطبخ. وصحيح أنه كان مطواعاً للتغيير، لكن بغير سهولة، وإذا تردد على محترف أندره لوت فهو لم يتجه إلى التكعيبية، ثم إذا تابع دروس فرنان ليجيه فهو لم يتبعه في أشكاله الأنبوبية أيضاً، ولا اتجه نحو فنون تابعها، ربما بدا منجذباً أحياناً لروجيه بيسيير، من حيث أسلوبه في تقطيع مساحة اللوحة، ولا غرابة، فهو من أساتذته في مدرسة باريس التي انضم إليها في بداية الستينيات. فهو يقدم أحياناً قماشة تشبه بحدودها الداخلية الخلايا المكبرة للجلد، وكثيراً ما تحدث عن سطح اللوحة كجلد. بل كان أحياناً يقسم اللوحة الكبيرة إلى لوحات أو مقاطع منفصلة، بحيث تتحد المساحة وتنفصل في آن. على أن التقطيع الداخلي للمساحة لا يقف عند شكل أو نمط، بل يتنوع في مروحة توليدية واسعة، فلا تشبه لوحة لديه أخرى. حتى أنه يكسر هذا السياق في كثير من الأحيان، بحيث يضعنا أمام مساحات واسعة ممسوحة بلون صافٍ تتحرك فيها كتل لونية أو تشكيلات حرة.

هكذا عاش عبود حياته الفنية يختلط فيها اليومي بالذاكرة، فتختلط الأزمنة والأمكنة في مساحة واحدة. فهو كان يتغنى دائماً بأن النور الذي وضعه في اللوحة الباريسية أتى به من لبنان، أو يحتفظ به من أيام الطفولة، أو من ذاكرته الفنية التي بدأت مبكرة، حين انطلق في هواية الرسم

وهو في الثانية عشرة من عمره. ولعل تلك الترسبات في ذهنه وما اختزنه من ذاكرة مشهدية ومن درجات الضوء في جبل لبنان، خصوصاً بلدته المحيدثة، التي عاش فيها طفولته وشبابه وقصدها بزيارات كثيرة خلال إقامته الباريسية، هي التي رشح منها تميزه، فتأكدت الفروق بينه وبين مجايليه من مدرسة باريس التي انتمى إليها.

تجميل الحس

بقيت لوحة عبود، في مراحله الأخيرة، تتراوح، من حيث الشكل، بين تجريد يذوب فيه الشكل، وآخر تحضر فيه ظلاله الخفيفة، فيلوح شكل رجل أو امرأة، ومرات كثيرة يستحضر المنظر الطبيعي اللبناني، بعيداً عن الطبيعة الباريسية، فتتدفق ألوان حارة، ويبدو في اللوحة كأنه يسرد تفاصيل مشهد أو حياة أو أحداثاً، لكن من دون أن يحوّل السرد إلى تكنيك أدبي. فهو يروي أكثر بالضوء واللون، من دون أن يلتزم زماناً أو مكاناً أو اسماً أو طبيعة محددة، وإن صور في بعض الأعمال سوداوية نكسة حزيران 1967.
يفتننا شفيق عبود في لعبته اللونية التي ابتعد فيها عن أي نمطية، كما نحا بها في اتجاه لا يكرس فوضى التجريد، ولا يقدس الصدفة في وضع اللون، بل يعمل على تجميل حسّنا البصري، أو هندسته، بمساحة مرتاحة تعشقها العين.

حقوق النشر محفوظة © شركة «السفير» ش.م.ل